هنري برجسون

(١٨٥٩ - ١٩٤١)

هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) (١)

تعتبر فلسفة برجسون رداً حاسماً على الشائع في أوربا في القرن التاسع عشر من إغراق في المادية ، ومن اتجاه تام نحو العلم والمشاهدة والتجربة. ومن تعويل مطلق على ثمرات هذا العلم وتقديس لنتائجه ، حتى أوشك هذا

---

١) من أعظم الفلاسفة المعاصرين . درس الفلسفة في مدرسة المعلمين العليا بباريس وحصل على درجة (الأجريجاسيون) . وشغل منصب أستاذ الفلسفة بالمدارس الثانوية من سنة ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٩ حصل على درجة الدكتوراه من السربون في بحث فذ يعد أساساً لفلسفته . هو (بحث في وقائع الوجدان المباشرة)

(Essai sur les données immédiates de la conscience)

ولم يعقه اشتغاله بتدريس الفلسفة بالمدارس الثانوية عن القراءة والبحث والتأمل والتأليف . ففي سنة ١٨٩٧ نشر كتاب (المادة والذاكرة — بحث في العلاقة بين الجسم والعقل)

(Matiére et Mémoire : Essai sur la relation du corps et de l'esprit)

وفي العام التالي عين أستاذاً بمدرسة المعلمين العليا وظل يحاضر بها إلى سنة ١٩٠٠ حيث شغل كرسي الفلسفة في الكوليج دي فرانس . وكانت محاضراته بها تجذب جمهوراً غفيراً من الفلاسفة والعلماء والشباب المتطلع إلى المعرفة المتوثب للفهم الحسن الناضج . وفي العام نفسه صدر كتابه عن الضحك — بحث في دلالة الكوميدي) .

(Le Rire-Essat sur la signification du comique)

وفي سنة ١٩٠٧ ظهر كتابه (التطور الخالق) *Evoluton Créatice* فأحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الأوساط العلمية والفلسفية .

وقد نشر برجسون إلى جانب ما ألف من كتب بحوثاً في المجلة الفلسفية *Revue philosphique* وفي مجلة الميتافيزيقا والأخلاق *Revue de Métaphysique et de morale*

وساهم كذلك في تحرير المعجم الفلسفي *Vocabulaire philosphique* الذي كان يشرف على إعداده العلامة (لالاند) ومن كتبه الأخرى (منبعا الأخلاق والدين)

Les Deux sources de la Morale et de la Religon.

مات برجسون سنة ١٩٤١ بعد نشاط إنساني عقلي فذ . وقد كان كما قال فالري فيلسوفاً عظيماً وكاتباً كبيراً وصديقاً للناس حميماً . بذل حياته مؤدياً رسالته ساعياً من أجل ترحيد العقول مجاهداً من أجل الإجماع على مثل عليا كان يعتقد مخلصاً أنها ينبغي أن تسبق كل قيمة لسلطة سياسية . أنظر ص ١ — ١٠ من :

André Cresson : Bergson, sa vie et son œuvre. Paris 1955.

وراجع أيضاً ص ٣٥ — ٦٧ من *J. Chevalirer : Bergson (Paris 1932)*

الاتجاه العلمى أن يغطى على كل تفكير روحى . ومن هنا نرى فلسفة برجسون تؤدى دوراً عظيما فى تلك الفترة التى ظهرت فيها .

وبرجسون صاحب فلسفة التطور الخالق *Evolution Créatrice* ، ولفلسفته جانبان ، أحدهما سلبى يتجه فيه إلى نقد أصحاب النزعة العلمية ، والآخر إيجابى يتجلى فيه المنهج الجديد الذى يتقدم به ، أعنى المنهج الحدسى ، ويعرض فيه نظريته فى الحرية وفى الأخلاق والدين ، ولكننا سنقتصر فحسب على ما يعنينا فى دراستنا للمعرفة .

حسبنا أن نشرع فى تقريب نقطة البدء فى تفكير برجسون إلى الأذهان : لنتخيل مصوراً سينمائياً يوجه آلته يمنة ويسرة ليلتقط منظراً من مناظر رواية ما ، تجرى فيه أحاديث وحركات . فماذا يسجل الفيلم ؟ يسجل صوراً متعددة لو نظرنا إليها فى ذاتها كل منها على حدة لتبينا انعدام الحركة فيها . بيد أن هذه الصور عينها تتيح لنا حين نعرضها فى حركة متواصلة وفى سرعة خاصة أن نرى المنظر على ما كان عليه فى الأصل ، أن نسمع حديث الممثلين ونشاهد حركاتهم وإيماءاتهم . ولكن هذه الحركة التى نشاهدها على الستار الفضى ونتتبعها بشغف ، حركة واهمة لأن الحركة فى الحقيقة ليست منطبعة على الفيلم ، فالفيلم لا يضم إلا سلسلة من الصور كل منها جامد لا حركة فيه . فآلة التصوير إذ سجلت ولكنها تعجز عن الاحتفاظ بالحيوية والحياة القائمتين فى الطبيعة . كذلك شأن العقل البشرى ، فالعقل إذ يواجه الأشياء فى حركتها المتصلة وتطورها المستمر يحاول أن يقتطعها قطعة قطعة ويعزلها عن الحركة لكى تتهيأ له دراستها . فكأن العقل البشرى ينزع من الأشياء حيويتها

الطبيعية . وهدف العقل من ذلك دراسة طبيعة الأشياء المادية . وليس لدى العقل لكى تتم هذه الدراسة على الوجه الأكمل إلا أداة واحدة يستعين بها أعنى التحليل . فالتحليل شرط أساسى لوضوح الفكرة العلمية التى يستند إليها كل تنبؤ فى المستقبل .

يرى برجسون أن أبسط إدراك للعالم يظهرنا على أنه حركة مستمرة دائبة فى كل متماسك . ولكننا حين نحاول دراسة هذا الاستمرار أو هذا الاتصال نركز انتباهنا على نقط معينة ونعزلها عن سائر النقط الأخرى ، فنحن إذن نحاول أن نتحكم فى طبيعة الأشياء فنفصل ما هو متصل ، ونفرّق ما هو مرتبط . ونحن فى دراستنا للعالم نتبع هذا المنهج لكى نحقق منافعنا العملية فتغيب عنا أعمق فكرة وهى فكرة الحياة المتدفقة . ولكن العلم وقد قطع أشواطا بعيدة فى التقدم يتبع مناهج راسخة قوية ، ومشاهدات العلم الخارجية مشاهدات تحليلية فهو يعتمد على التشريح والتجزىء إلى ذرات وإلكترونات . وقد تغالى العلماء فى نزعة التحليل هذه وبخاصة علماء النفس أصحاب مذهب التداعى وكذلك علماء الاجتماع الآخذون بالحتمية .

إن عقلنا يمثل لنا عالماً جزّأه إدراكنا وقطّعه تفكيرنا إلى قطع صماء جامدة ليس بينها وبين حقيقة الواقع إلا شبه ضئيل ، مثلها فى ذلك مثل الصور المثبتة التى يشملها الفيلم السينمائى ، إذا قيست بحركة الممثلين الذين سجل الفيلم مناظر لهم . ويرى برجسون أن عقلنا يستعين فى هذه العملية بأداتين ، الأولى تمثل المكان *Représentation de l'espace* والثانية هى اللغة التى نعبر بها عن أفكارنا . فنحن باعتمادنا على هاتين الأداتين

نحاول أن نملك الأشياء فى قبضة يدنا ، فكأننا بهذا نحول بين هذه الأشياء وبين تدفقها الطبيعى ، شأننا فى ذلك شأن المولع بجمع الفراشات يحنطها ويثبتها على لوحة يحتفظ بها .

لكننا لو توخينا التعمق فى تأملنا للأشياء لتبينا أننا نفكر بطرائق متعددة : فلو أننا أخذنا مثلا سلسلة تشمل ا ، ب ، حـ ، د ، هـ . لرأينا أنه يمكننا فى تأمل هذه السلسلة أن نتبع ثلاثة وسائل :

الأولى : أن نتمثل ا ، ب ، جـ ، د ، هـ . حينئذ نكون قد تأملنا عناصر هذه السلسلة ، دون أن تجتمع لنا صورة متكاملة لهذه السلسلة عينها .

والثانية : أن نضع هذه الحدود ا ، ب ، حـ ، د ، هـ جنباً إلى جنب ونستعرضها فى نظرة شاملة ، فتتهيأ لنا فكرة السلسلة ذاتها ؛ ولكن هذه الفكرة أعنى فكرة السلسلة مجموعة لن تتهيأ لنا إلا إذا وحدنا بين العناصر جميعها .

والوسيلة الثالثة : هى أن نعيش فى هذه السلسلة نفسها ، ونحاول أن نتابع حيوية هذه العناصر المتكاملة ا ، ب ، حـ ، د ، هـ ، نحاول أن ندخل شعورنا فى تيار هذه العناصر ذاتها . وما أشبهنا فى ذلك بمن يستغرق منصتاً إلى مقطوعة موسيقية . فبالرغم من تعدد الأنغام فيها واختلاف الخيالات التى تطوف بنا فى ثناياها ، هنالك وَحْدة قوية تربط عناصر هذه المقطوعة برباط وثيق يتيح للمنصت أن يعيش فى هذه الوحدة

أى فى اللحن بأسره ككل . ولا ريب أن هذه الوسيلة الأخيرة أو هذا المنهج الأخير الذى نتبعه هو أصلح المناهج لفهم طبيعة الأشياء وإدراك حقيقتها .

وينقد برجسون موقف العلميين من فهم الطبيعة ، فهو يرى أننا لو شئنا بعقلنا أن نتفهم فى وضوح وجلاء طبيعة هذه السلسلة من الأحداث ، لكان لا محيص لنا عن الاستعانة بفكرة المكان ، فننظر لحركات هذه السلسلة على أنها مترابطة قائمة فى خط متصل . فلابد للإنسان لكى يتصور شيئاً أن يكون هذا الشىء قائماً فى مكان ، ولا شك أن تصور المكان أمر رئيسى جوهرى فى كل تفكير(١) .

هذه الفكرة عن المكان تنطوى على معنى رياضى ، ويستلزم هذا المعنى الرياضى معنى رياضياً للزمان ، فنتصور الزمان كذلك على أنه سلسلة من اللحظات تسلم كل منها إلى الأخرى . فكما أننا نتصور المكان تصوراً رياضياً على أنه نقط تشغل حيزاً ، فتصورنا للزمان على هذا النسق هو أنه لحظات تتعاقب فى المكان . ففكرة الزمان وليدة فكرة المكان . ومن ثم يقترن تصور الزمان بتصور الحركة ، فالزمان الرياضى نقط تنتقل فى المكان . ولا شك أننا فى تفكيرنا العلمى نستخدم هذا التصور ونعوّل عليه ، وخاصة فى دراستنا للميكانيكا . ذلك لأن الحركة تعنى فى عقولنا أن هنالك متحركاً أخذ يشغل على التوالى سلسلة من النقط فى المكان .

---

(١) ص ٨٥ من كتاب برجسون (بحث فى وقائع الوجدان المباشرة) و ص ٢١١ و ٢١٣ من كتابه (المادة والذاكرة) وكذلك ص ٣٣٣ — ٣٣٧ من كتابه (التطور الخالق)

ويرى برجسون أننا فى هذا النحو من التفكير نقوم بعملية بلورة للمتحرك *Cristallisation du mouvant* أى عملية إماتة . ونحن لا نفكر تفكيراً علمياً واضحاً إلا إذا صغنا أفكارنا فى قضايا تحليلية تشمل موضوعاً وأداة ومحمولا ، وتدل على ما بينها من علاقات . هذه الصيغ التى نحاول أن نصب فيها ماوصلنا إليه من علم صيغ جامدة مصطنعة تخفى وراء ثباتها حركة متصلة وصيرورة *devenir* دائمة وتغيراً خالصاً . هذه العملية التى يقوم بها نشاطنا العقلى هى التى ينبغى أن نوجه إليها انتباهنا . ذلك أننا لو نفذنا إلى ما وراء هذه الصيغ لوصلنا إلى أعماق تلك الحركة المتصلة القائمة فى الأشياء .

مهمتنا إذن أن نتعمق هذه الحركة كفلاسفة ندرس فيما وراء الظواهر حتى نصل إلى المطلق . علينا أن نعنى بالحياة نفسها . وسبيلنا إلى ذلك لا الإرتكان إلى العقل وإنما الاعتماد على الحدس *intuiton* (١) .

الحدس البرجسونى .

فى الحدس نتحرر من كل نزعة إلى التحليل ، وإلى فك المركبات إلى عناصرها . والمعرفة الحدسية تكمن فى المتحرك وتحتضن حياة الأشياء ذاتها ، فتصل بنا إلى المطلق . فالمعرفة العلمية التى تعتمد على دراسة المادة معرفة رمزية لأنها توقف الأشياء فى حركتها فتتأملها وتستخلص القوانين

---

(١) ينبغى أن نفرق بين الحدس عند ديكارت والحدس البرجسونى ، فالحدس الديكارتى رؤية عقلية مباشرة بينما الحدس البرجسونى رؤية وجدانية . إن صح هذا التعبير. أنظر ص ٦٠ ــ ٦٢ من هذا الكتاب .

التى تسير بمقتضاها متوسلة بالمشاهدة والتحليل والتركيب . وهذه المعرفة العلمية معرفة مادية نسبية تؤمن بالحتمية وتطبقها فى جميع المجالات من طبيعية ونفسية . ونحن لا سبيل لنا إلى استكناه طبيعية الحياة إذا اعتمدنا على هذه المعرفة . فلا بد لنا من معرفه أخرى تمكننا من هذا الفهم ، وتلك هى المعرفة الحدسية . ونحن بالحدس ندرك المطلق ونفهم الحياة فى أعمق معنى لها .

نحن هنا إزاء إحساس بالنفس وهى تنبض بالحياة . إننا نتبع النفس فى تموجات حركتها وتدفق حالاتها . نحن هنا أمام نمط من التجربة المباشرة له صبغة كلية شاملة للوجدان فيها الغلبة على العقل . إن كل من يتأمل فى نفسه متحرراً من التحليل مستغنياً عن وسائل العلم المألوفة ، يمكنه أن ينطلق إلى الوجود المطلق الذى نجده فى أنفسنا كما نجده فى جميع الأشياء . والحدس ليس بمثابة امتلاك المرء لوجدانه فحسب *prise de conscience* وإنما هو أيضاً تعاطف عقلى *sympathie intellectuelle* تعاطف نفاذ *sympathie divinatrice* يفتح لنا مغاليق الموجودات الأخرى مثلما يكشف لنا عن مكنون نفوسنا .

تلك تصورات تلوح لنا غامضة مصطبغة — رغم مافيها من جمال — بصبغة الاستعارة والكناية ، ولكننا مانكاد نتعمقها حتى يتضح لنا مقصد برجسون الحقيقى . ذلك أننا ينبغى أن نفطن إلى تلك الحقيقة الهامة ، وهى أنه يرى أن ثمة تياراً متصلا وأمواجاً متدفقة قائمة دون ما انقطاع فى جميع الموجودات بحيث أن من يعرف نفسه معرفة وثيقة يعرف فى الآن ذاته كل شىء معرفة وثيقة أيضاً .

هذا هو الاتجاه الجديد الذى يحمل لواءه برجسون . وهو يرى فى كتابه «وقائع الوجدان المباشرة» . ان هذه الوقائع تيار متدفق من ظواهر متنوعة . ولكن هذا التيار لا يتألف من كميات ، فإن هذا أبعد ما يكون عن تصوير برجسون ، بل ينتظم حلقات مرتبطة من الكيفيات . وعلى ذلك فظواهر الشعور أو وقائع الوجدان تختلف اختلافا بيناً فى طبيعتها عن الظواهر المادية (١) ، ذلك لأن الظواهر المادية لا تعدو أن تكون عدداً كبيراً من الأحداث يميّز بعضها عن البعض الآخر ويعقب بعضها البعض الآخر . أما الحياة النفسية فهى تلقائية خالصة *Pure Spontanéité* . وتنطوى هذه التلقائية على خلق مستمر . والحياة النفسية إن هى إلا ديمومة *Durée* ، وصيرورة *Devnir* . وهذه الديمومة لا تخضع للاحتمالات التى تخضع لها الظواهر المادية . من قبيل تلك الاحتمالات مثلا ، أننا فى الظواهر المادية نتوقع المستقبل توقعاً حتمياً . الحياة النفسية كيف بحت مباين مباينة تامة لطبيعة الكم . وإضافة الكم إلى الظواهر النفسية إنما يأتى من أننا قد اعتدنا أن نقرنها بالظواهر الجسمية التى تصاحبها . هذه الظواهر الجسمية ذاتها هى التى تخضع للقياس .

القياس *mesure* فى صميمه انطباق مكان على مكان . ومن ثم كان العلم يعتمد على القياس ويتوخى الدقة الرياضية . ذلك أن العقل بطبعه ميال إلى القياس ، ومجال ذلك المكان والمادة . ومن هنا نرى أن عقلنا يحاول تطبيق المنهج ذاته على النفس ، فنتخيل أن حالاتنا الباطنة منفصلة

---

(١) أنظر ص ١٧١ من (بحث فى وقائع الوجدان المباشرة) .

ومرتبطة على طول خط ، وننقل بالتالى الألفاظ الدالة على ماديات إلى معنويات ، فيترتب على ذلك وصف الظواهر الوجدانية بالشدة والضعف والمقارنة بينها على هذا الاعتبار .

التطور الخالق *Evolution Créatrice*

إن تأملنا للعالم — كما يرى برجسون — يجعلنا نستشف كثيراً من الحقائق . فنحن نلاحظ أنه منذ عهد بارميدس وزينون الإيلى من ناحية ومنذ عهد هرقليطس من ناحية أخرى ، وفلاسفة الميتافيزيقا يتجهون اتجاهين .

١ — ميتافيزيقيون يرون أن الوجود ثابت وينفون عنه الحركة ، ويذهبون من ثم إلى أن لاشيء ينجم عن لاشيء وعلى ذلك فلا شيء يتم فيه تحول أو يطرأ عليه تغير . واستخلصوا من ذلك كله أن التعدد بالحركة والتغير لا يعدو أن يكون مظاهر أو أوهاماً .

٢ — أما الفريق الآخر من الميتافيزيقيين فقد وجهوا عنايتهم إلى ما فى العالم إمن تغير وتحول وصيرورة - بعبارة برجسون - ، وكأنهم يرددون مع هرقليطس عبارته المشهورة : « ليس فى وسعك إن تنزل النهر مرتين فإن مياهاً جديدة تجرى من حولك أبداً » فليس هنالك إذن وجود بالذات وإنما الظواهر هى الوجود بالفعل ، نستبين فيها التغير أو الصيرورة . فالواقع الذى نشاهده يتمثل فى الصيرورة .

فما موقف فلسفة حدسية كفلسفة برجسون ؟ .

إن الحقيقة الواقعية ليست هى الوجود وأنما هى ديمومة خالصة هى صيرورة بحتة . ثمة تيار ينتظم كيفيات نشعر به ونتوقعه ونترقب الأحداث فيه . هذا التيار متدافع يتطور دون توقف ، وكل جديد فيه خلق وإبداع. الحقيقة الواقعية إذن فى نظر برجسون هى التطور *Evolution* بيد أن حقيقة التطور هذه قد سبقه إليها من قبل لامارك *Lamark* وداروين وسبنسر وغيرهم من الأعلام . إلا أن هؤلاء انصرف همهم إلى التماس تفسير آلى للاكون . فسروا تكوين الأفراد على اختلاف أنواعها وتكوين الأنواع المعروفة من نباتية وحيوانية ومعدنية ، تفسيراً مادياً . نلاحظ ذلك فى فلسفة لامارك الحيوانية . وتنطوى هذه الفلسفة على النظرية القائلة بأن فعل البيئة وتكوين الأعضاء بمقتضى الوظائف ووراثة الخصائص التى يكتسبها الأفراد والتى كانت أصلا عادات انتقلت من جيل إلى جيل ؛ هذه العناصر جميعا هى التى يمكن على ضوئها تفسير ماهنالك من تنوع واختلاف بين أنماط الموجودات . إلى هذا يتجه أيضا كتاب داروين فى أصل الأنواع ويزودنا هذا الكتاب بنظرية تتصل بالتنوع والوراثة والتنافس بين الكائنات الحية ، وهى التى تؤدى إلى تحقيق قانون الإختيار الطبيعى الذى يقضى على الكائنات التى تعجز عن التكيف بالبيئة ، ولا يستمر فى الحياة تبعاً لهذا إلا كل كائن تحقق التلاؤم بينه وبين البيئة . وسبنسر يطبق كذلك قانون التطور فى مجالات متعددة فى عالم الأفلاك وعلم الحياة وفى النفس والمجتمع .

ويتمثل التطور عند « سبنسر » فيما يتم من تلاؤم مادى وفيما تمر به الظواهر المختلفة من طبيعية ونفسية واجتماعية من تغير من البسيط إلى المركب ومن المتجانس إلى المتخالف . وهذه العمليات جميعاً تتم فى نظر سبنسر بطريقة آلية ينطبق عليها قانون الحتمية الآلى . وسبنسر يعتقد أن أصل الأشياء الأول ومصيرها أمر مغلق لا سبيل لنا إلى معرفته وسوف يظل دائماً مجهولا لنا .

و « برجسون » يرى أن هؤلاء الفلاسفة جميعاً قد توصلوا إلى حقيقة لا جدال عليها ، أعنى التطور . ولكنه يرى أنهم ضلوا السبيل مع ذلك ، فإن المبادىء الميكانيكية والمسلمات الآلية التى نصادفها عند « لامارك » و « داروين » و « سبنسر » تعجز عجزاً تاماً عن تفسير التطور فى العالم ، ذلك لأن هؤلاء الفلاسفة قد أنصب همهم على دراسة المادة فحسب فلم يكن فى وسعهم أن ينفذوا إلى لب التطور . (١)

و « برجسون » يرى أن التطور ينبثق عن « وثبة حية » *élan vital* هى أشبه ما تكون بانبثاق الحياة وتدفقها . ففى أنفسنا وثبة حية تتمثل فى رغبتنا فى الحياة وتطلعنا إلى الجديد ، تلك الحياة التى نتشبث بها كل لحظة ونحاول ان نفلت من الموت ، الموت الذى يلاحقنا ويكاد ينقض علينا لولا ما نبذله من جهد لاشعورى منتظم فى التنفس والتغذية .

---

(١) ارجع إلى ص ١٢٦ — ١٤٤ ، ١٥٦ — ١٥٧ من كتاب برجسون (التطور الخالق)

هذه الوثبة الحية نتميزها فى كل شىء . ألسنا نرى أن الأحياء جميعاً يناضلون دون ما انقطاع لتأدية أفعال لايمكن بدونها أن يستمر لهم بقاء ولا أن يزدهر لهم وجود ولا أن يتجدد لهم أمل ؟ أليس فى هذا وجه شبه بين مايقول به « برجسون » ومايذهب إليه « اسبينوزا » من نزعة الكائن الحى إلى المحافظة على بقائه ؟

مهمتنا أن نتأمل فى نشاط هذه الوثبة الحية ؛ فكل شىء يمضى وكأن حاجات الكائنات تتجدد ، فما يتحقق بعضها حتى تواصل السعى إلى تحقيق غيرها ، هذا المجهود نفسه ، هذا المجهود التلقائى كما يقول برجسون يقهر مايواجهه ؛ ويقضى على مايقف فى طريقه. فى هذا المجهود ابتكار وخلق وإبداع ، فالحياة فى صميمها ابتكار وخلق وإبداع ، وطالما ظل هذا الخلق قائماً اتصلت حياة الأفراد وازدهرت حياة المجتمعات. فأهم طابع للتطور فى نظر « برجسون » هو الخلق أو الإبداع ، فما مقصده من هذا ؟

إن الحياة تحقق التوافق بين أعضاء بدنية وغرائز واستعدادات عقلية. وهذه جميعاً تعين الحياة قطعاً على الاستمرار وعلى الانتشار فى صور متعددة ، هذا الإنتاج الضخم إنتاج رائع ولكنه ليس ثمرة الحتمية العمياء كما يذهب أصحاب النزعة العلمية . إن الوثبة الحية تعمل فى حرية تامة وفى تلقائية خالصة، وهذا مايحقق الخلق والإبداع .

ليس التطور إذن وليد الصدفة ولا ثمرة الآلية وليس التطور تابعاً من وراثة خصائص يكتسبها الكائن أصلا بالعادة . وإنما التطور يتم دفعة واحدة على قفزات مباغتة *sauts brusques* . التطور ينجم من الباطن

ولا يأتى من الخارج . ينجم من هذه الدفعة الباطنيه التى تولد كل جديد وتبتدع كل طريف .

فالعقل فى نظر برجسون ليس غريزة مصقولة مستكملة ، وليست الغريزة بقية موروثة من بقايا عادات الجنس البشرى ركزت فى الافراد على مر الأجيال . إن الإنسان والحيوان لايقفان على خط واحد فى التطور . فالطبيعة قد زودت الحيوان بالأدوات الضرورية التى لا غنى له عنها فى حياته وإنتاجه ، فأمدته بالتالى بتلك القوة التى تسمى غريزة وهى قوة نوعية بما تنطوى عليه من فطرة لا تخطىء وهى تحقق التوافق بين الكائن الحى وبيئته .

ولكن الطبيعة شاءت أن تجعل الإنسان كائناً مبتكراً مبدعاً، فزودته بعقل قادر على كل شىء صالح لكل شىء . إلا أن الإنسان كثيراً مايتعثر فى مجالات التجربة وكثيراً مايقع فى الخطأ . وبين الغريزة الحيوانية والعقل الإنسانى فارق طبيعى بالرغم مما نلاحظه هنالك من ظل عقلى يحوط الغريزة وظل غريزى يكتنف العقل . إن خط التطور الذى ينتهى إليه الحيوان نتبينه فى جماعات البشر فى حركة متصلة تتطلع دواماً إلى ماهو أكمل .